العبرة من موت هرة

من شعراء دمشق، في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي): أحمد بن الحسين الكيواني (ت ١١٧٣هـ، ١٧٥٦ م). ولهذا الشاعر ديوان مطبوع سنة ١٣٠١هـ، والديوان - وإن لم يضم شعره كله - يفصح عن شاعر متميز، في بلده، وفي زمانه (العصر العثماني). وهو - عندي - طليعة متقدمة لحركة نهضة الشعر العربي، وتمهيدٌ ذو قيمة أدبية وفنية وابداعية لمرحلة محمود سامي البارودي (ت ١٣٢٢هـ، ١٩٠٤م).

د. محمد رضوان الداية(*) - سورية

لقد كان الكيواني، كما نقول اليوم، سابقاً لعصره، ورائد أصالة (باستيعاب التراث المبدع) وتجديد (يتجاوز الجمود الذي غلب على الشعر منذ أواخر العصر العباسي). وكان أديباً (شاعراً كاتباً) واسع الثقافة، مطلعاً على تاريخ الأدب، ممدود اليد إلى أمهات الكتب والدواوين، حافظاً، مستحضراً عيون الشعر العربي ومختاره.

وأقف اليوم عند قصيدة للكيواني، ثابتة في ديوانه، رثى فيها هرةً كانت تعيش في داره. والقصيدة تدخل في إطار الاتجاه الوجداني الذي غلب على ديوان الشاعر من جهة، وتنفتح على جوانب أخرى نمر على ذكرها تباعاً.

تلاقت في القصيدة – وعدد أبياتها أربعة وخمسون – ملامح متعددة، فجاءت قصيدةً متكاملة الجوانب، ذات مزايا في إبداع شعري يختلف عن معظم خصائص الشعر المعاصر له الذي نعرفه في الدواوين أو كتب الأدب والتراجم.

وتظهر في القصيدة أمور طبائعية تتعلق بالمألوف من القط (مع مزايا يسبغها الشاعر بتلوين شعري على هرته: جارة بيته، وأنيسة وحدته)

وقد وصف الشاعر الهرة، وهي نوع قابل للاستئناس من فصيلة السنوريات، فوصف عينيها اللامعتين المتغيرتين مع الضوء واختلافها بين

(*) أستاذ الأدب والنقد في جامعة دمشق.

ليلٍ ونهار، ووصف لونها وأناقتها وذكر هَريرها، وتمسحها بالإنسان وتوددها له – وكأنها معه في صُحبة – وخروجها المبكر إلى طلب المعاش، والحركة في الدار وخارجها..

واختار من مزاياها – وأطال الوقوف ثمة – التسلط على الفئران المؤذية في الدُور والحقول والحوانيت وغيرها، ونبه على أذى الفئران البالغ في الأوراق والكتب والكراريس وأثر الهرة في التخلص من هذا كله.

ومع هذه الفوائد البيئية للقط فإن الشاعر أشار إلى ما يكون منه من الأذى، حين يتسلط على الطيور الداجنة وغيرها مما يحوزه الإنسان وينتفع به في الدور والمزارع.

وذكر حِدة القط وغضبته إذا اهتاج أو هيجه أحد، قال:

وتملق السنور معـ ـروفٌ وحدته شهيرهْ
ولها إذا أغضبتها أو هجْتها نفسٌ مريرَه

وأشار إلى طبع أسدي في القط:

تحكي الهزبْر إذا أزبأر ت صورةً إلا زئيرهْ

وذكر سمع القط المرهف وكمونه للفأر وغيره، وتماوته سياسةً ودهاءً:

كمنتْ لهن كمون ميت واعْجبْ لعاقرة عقيرهْ

فهي عاقرة: تصطاد وتفتك، وهي عقيرة (بمعنى معقورة) لأنها مخلوق، وإن قويت على أعوانها، ومآلها الموت لا محالة!

وصورة هرة الشاعر صورةٌ جميلةٌ؛ وهذا جانبٌ من مقومات تقريبه لها واهتمامه بها:

كانت تروق الناظريـ ـن بحسنِ أخلاق وصُورهْ

وهما صفتان: واحدة حسية ظاهرةٌ، والثانية صفة منقولة إليها من الصفات الإنسانية (حُسن الأخلاق)، فلما رثاها الشاعر، ذكر جانباً من صفات الإنسان:

دعْ ذا وخُذ مُلحاً تـرُد طلائع الهم المغيرهْ

وهي ملحٌ تأتي من جانب الهرة المذكورة.

واختلط جانبُ الوصف، بالموقف الشخصي (الإعجاب بالهرة وقدراتها) بالرؤية الفنية (حُسن التصوير) فقال:

كانت كجمر مضـرم إن عانق الواني فتورَهْ
كانت لجيش الفأر صا عقةَ مسومةً مُبيرَهْ

واسترسل حتى قال:

كادت تصيد الفرقديـ ـين بوثبة منها يسيرهْ
فتعلمتْ حركاتها شغلُ البروق المستطيرَهْ

شبه حدتها ونشاطها باتقاد الجمر المضْرم، وخاصة حين تفتر همة أحدهم حتى يوصف بالواني، وشبه سطوتها على جيش الفئران بسرعة الصاعقة وهجمة الخيل المسومة، وعمل القوي المبير لأعدائه.

وبالغ –والمبالغة هنا مناسبة – لإيضاح الوصف وتحسين صورة السنور وهو يثبُ وينطلق نحو فريسته بقوة واندفاع وارتقاء وسرعة التفاتٍ والتفاف! صورة حركية حسية متلاحقة توضح المقصد، وتلون الكلام، وتمدح الهرة.

وفي القصيدة جوانب شخصية: فصحبة الهرة مألوفة، وهرة الكيواني أعانته على كسر حاجز الوحدة والانفراد عن الناس، وآنسَتهُ بمثل ما هو مألوفٌ من جِنسها من الإيناس وزيادة، قال:

كانت لنفسي إنْ فقدت ت مسامراً أبداً سميرهْ
إني لأنْعتُ مقلـة كانت بها عيني قريرهْ...
...ستر التودد شرها وطباعُها تبدي ظهورَهْ

وارتفع الجانب الشخصي في القصيدة صوتاً وعاطفةً، وامتزج الشخصيُ بالإنساني حين نعى هرته، وقال:

أعْـززْ علـيّ بـأنْ تصا ب وأن أضمتها حفيرَهْ
لو سامها مني الردى ما بعتُها بخراج كورَهْ

لو كان أمر حياتها في يده لما فرَط فيها، أو سامه الموتُ عليها، وأغلى في الثمن – كما يفعل المشتري عادة – لما قبل أن يُسْلِمها إليه، ولو كان الثمن عظيماً.

وتغلغل في القصيدة ملمحان آخران ظاهران: الإنساني والإسلامي، وهما يتداخلان في النص ويلتقيان، وتظهر خصوصية كل ملمح أيضاً؛ وإن كانا في الأصل لا يتعارضان.

وأظهرُ مظاهر الإنسانية في القصيدة هذا الود الذي ذكره الشاعر، وتثمينه العالي للصلة النفسية بالحيوان حين صارت العلاقة مع الإنسان صعبةً، أو منقطعة (من وجهة نظر الشاعر على الأقل)، وقد صرح الشاعرُ بأنه: لو وقعتْ مساومةٌ له، وإن كانت عاليةً غاليةً لم يكن ليفرط بالهرة. لقد كرمها ورعاها وأحْسَن معاملتها. وانظر صفة (أسيرة) التي وصف بها هِرته؛ والمراد أنها في رعايته وحفظه، وأنه مسؤول عنها، ومطلوبٌ منه حُسن الصحبة؛ قال:

... ولذا قنعتُ بظبية بالحب من مثلي جديرَهْ
وحشية شَرَكُ القضا ء أصارها عندي أسيرَهْ
فغدت وما هي بالمهيـ ـنة في يَدَيَ ولا الحقيرهْ

وفي ذِكر (الأسر) للهرة، (والحيوان الأليف للإنسان) وواجب الإنسان نحوه، ملمحٌ إنساني يلتقي مع الملمح الإسلامي.

وقد ورد في الحديث: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان». قال ابن الأثير: أي أسَراء أو كالأسراء.

(الفعل عَنا يعنُو، والرجل عانٍ والمرأة عانية، والجمع عَوان).

وبين الشاعر بمناسبة موت هرته العبرة من الموت، فالمُبيرُ المميت المتسلط سيكون يوماً مَيّتاً لا حول له؛ والقويُّ المتجبر مُعرَضٌ لأن يكون ضعيفاً لا سطوة له. ف (كل شيء هالكٌ إلا وجهه) القصص /٨٨.

– قال في الظلال (ص٢٧٦١): «...كل شيء زائل، وكل شيء ذاهب: المال والجاه والسلطان والقوة، والحياة والمتاع، وهذه الأرض ومَنْ عليها، وتلك السماوات وما فيها، ومَنْ فيها، وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله كله. كله هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي، متفرداً بالبقاء».

–وفي الأثر: «قال جبريل: يا محمد عِش ما شئت فإنك ميت، وأحببْ من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به». أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.

وقد وقف الشعراء عند هذا الملمح من حقيقة الموت، وأنه غاية كل حي كقول قطري بن الفُجاءة:

سبيلُ الموت غاية كل حي وداعيه لأهل الأرض داعِ

ولكن في الالتفات إلى الاعتبار بموت الهرة ملمحاً قل وقوفُ الشعراء عنده، على أنه تذكر قصيدة ابن العلاف الشهيرة:

يا هر فارقتنا ولم تَعُد وكنتَ عندي بمنزل الولد

وفي خبره (وفيات الأعيان ٢ : ١٠٨) أنه كان لأبي بكر هرٌّ يأنسُ به، وكان يدخلُ أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها، وكثر ذلك منه، فأمسكه أربابها فذبحوه، فرثاه بهذه القصيدة. وهناك كلام على القصيدة المذكورة تصلح العودة إليه في وقفة خاصة.

على أن لقصيدة الكيواني الدمشقي خصوصية ظاهرة، وصلة بحياته الشخصية، فقد كان يميل إلى الوحدة والانفراد. ومن هنا كان انتباهه إلى موت هرته، وإلى ما ذكره فيها من أمور.

ووضع الكيواني في رثاء الهرة ما يضعه الشاعر في رثاء الإنسان، مع تغييرات طفيفة تقتضيها الحال، والمناسبة. ونقرأ في القصيدة:

واسمع رثاء هُرَيْـــرَة ... كانت تُرى عندي أسيرَهْ
خلسَ الحمامُ حياتَها ... وابتز من قلبي سرورهْ
كانت تروق الناظريـــ ... ـن بحُسن أخلاق وصورهْ
كانت لنفسي إن فقدْ ... تُ مسامراً أبداً سميرَهْ

وتلاحظ في حشد المُفردات الدالة المناسبة لسياق الرثاء ما يشحن النص بما يريد الشاعر أن يظهر للقارئ والسامع؛ فصغَر الهرة تصغير التحسين والتحبب، ووافق التصغيرُ اسماً كانت العربُ تسمى به المرأة: (هُريرة)، ومشهورةٌ مخاطبةُ الأعشى: «ودع هُريرة..» وجاء بأفعالٍ حادة الأداء مثل: «خلس» و«ابتز» للموت، و«تَروق» و«مسامِر» للهرة؛ حتى تؤدي أدوات التعبير المختلفة وظيفتها لإيصال الفكرة بوضوحها وحرارتها.

واسترسل في الرثاء (ومن تعريفاته أنه: مَدْح الميت) فقال:

إني لأنْعَتُ مُقلـــةً ... كانتْ بها عَيني قريرَهْ
صفراء تحسب أنهـــا ... تخضر في وقت الظهيرَهْ
أسنانها من حبة الشو ... نيز في شكل الشعيـرَهْ
طوراً تطول وتـــارةً ... تبدو لعينك مستديرهْ

فهذا ثناء أساسُه الوصف، أدرجه في سياق الرثاء لتأتلف المقاصد المختلفة وتصل القصيدة إلى غايتها.

ثم أقول:

واضح من القصيدة أن الشاعر ارتقى في رثاء الهرة عن تعامل الناس مع موتِ هرةٍ وهو يمر في العادة مروراً عارضاً. واستفاد من الحَدَث أموراً تخص الهرة نفسها، وجنسها معها، وأموراً أخرى بين شخصية، وإنسانية، وإسلامية.

والقصيدة تتناغمُ مع نهجٍ قديمٍ في التراث العربي من وقوف الشعراء عند الملامح الإنسانية والإسلامية كما لاحظوها في الكون والإنسانِ – وسائر المخلوقات – وباقي مناحي الحياة(*) ■

(*) للاطلاع على القصيدة كاملة، انظر المجلة الإلكترونية في موقع الرابطة العدد (٣٠)، باب من التراث.

زورق

أشرف محمد قاسم - مصر

يا من بأفق الأسى يمضي بلا هاد ... يا قاهريَّ الهوى والحزن بغدادي
فتش بأدراجنا وافتح حقائبنا ... واكتب بدمع الندى تاريخ ميلادي
هذي مصابيحنا في الدرب مطفأة ... وخيمة الملتقى من غير أوتاد
عدت علينا كلاب الصيد تنهشنا ... يا أمة هرولت في إثر جلاد
هل يرحم الذئب شاة حين مخمصة ... أو تحضن الأسد طفلاً إن عدا عاد
ها نحن كالزورق الحيران تحمله ... أمواج بحر تعالت دون إرشاد